٢٨٥

أفكار غيرت العالم

٣

نيلسون مانديلا

محارب ضد العنصرية

أول رئيس أسود منتخب لجنوب أفريقيا

بقلم :

د. منال القاضى

دار المعارف

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

القاضى، منال.

نيلسون مانديلا محارب ضد العنصرية: أول رئيس اسود منتخب لجنوب أفريقيا/ بقلم منال القاضى. ـ ط ١ ـ القاهرة: دار المعارف، [٢٠٠٨].

٢٨ ص؛ ٢٠ سم. ـ (أفكار غيرت العالم؛ ٣)

تدمك ٢ ٧٢٥٢ ٠٢ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - جنوب أفريقيا الملوك والحكام.

٢ - مانديلا، نيلسون، ١٩١٨.

(أ) العنوان

ديوى ٩٢٣،١

رقم الإيداع ٢٣٥٨٦ / ٢٠٠٨ ٧ / ٢٠٠٨ / ٥١

تنفيذ المتن والغلاف
بقطاع نظم وتكنولوجيا المعلومات
دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة – ج . م . ع
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

من هو نيلسون مانديلا:

- وُلدَ نيلسون مانديلاً فى عام ١٩١٨.
- يُعَدُّ منْ أبرزِ المناضلينَ ضِد العنصُريَّة فى جنُوب إفريقيا.
- درسَ القانونَ وافتتح هو وصديقهُ «تامبو» أولَ مكتبِ مُحاماة يديرهُ محاميَّان إفريقيان فى جنُوب إفريقيا.
- قضى فى السجن سبعة وعشرينَ عامًا قبلَ أن يصدرَ الرئيس «دى كلارك» أمرا بالعفو عنه عام ١٩٩٠.
- نالَ جائزةَ نُوبل للسلام مناصفةً مع الرئيس «دى كلارك» عام ١٩٩٣.
- انتخبَ أولُ رئيسٍ أسود لجنوب إفريقيا عام ١٩٩٤.
- ظل رئيسا لجنوب إفريقيا حتى عام ١٩٩٩.
- بعد تقاعده نَاصر قضايا حقُوق الإنسان.
- اختير سفيراً للنوايا الحسنة عام ٢٠٠٥ بواسطة الأمم المتحدة.

مِنْ أقوال نيلسون مانديلَّا:

«لم أفقد الأملَ أبدًا، أنَّ التغيير لابد آت، ليس فقط بسبب هؤلاء الأبطال، لكن بسبب شجاعة النساء والرجال العاديين من شعبى».

«لا يوجد أحد يكره شخصا بسبب لونه أو دينه، فإن الناس وإن كانوا قادرين على تعلُّم الكراهية، فلابدَّ وأنهم قادرون على تعلُّم الحب».

تهامسَ أهلُ قريةِ مفيزو «لقدْ رُزقَ رئيسُنا بولدٍ»

علَت الابتسامَات الوجُوه، قالتْ إحْدى العجَائز:

«إنَّ رئيسَنا رجلٌ شجَاع وحكيمٌ، ولابدَّ أَنَّ ابنهُ سيكونُ شجاعًا وحكيمًا مثلهُ، ماذَا أسمَاه؟»

مالتْ عليهَا امرأةٌ بدينةٌ وقالتْ:

«اسمهُ روُليهلاهلا»

ابتسمتِ العجوزُ وقالتْ:

«اسمهُ معناهُ المشَاغب»

حدَّقتْ فِي السَّمَاء، كأنهَا تستشرِفُ مُستقبلَ الوليدِ الجديدِ، وتمْتمتْ بينهَا وبينَ نفسهَا:

«لنْ تكونَ حياتهُ سهلَة هذَا الوَلد»

كانَ رئيسُ قرَية «مفيزو» فِي هذِه الأَثناءِ يحمل ابنهُ الرَّضيعَ، وينظرُ بحنانٍ إلى زوجَته الثَّالثة «نوز كينى فانى» وَيقولُ:

«لقدْ بعثَ لى مَلكُ قبيلةِ «الثمبو» بتهْنئة».

التفَتت نحوهُ بعينيْن وَاهنتيْن وابتسمَت فِي رضًا، كانتْ فَخُورةً بزوجهَا الذِى يمتُّ بنسبٍ إلى ملكِ قبيلَة «الثمبو»، وهوَ محلُّ

ثقته وَإلَّا لمَا اخْتَارهُ رئيسًـا «لمفيزو» وجعَل الحكومةَ تصدقُ عَلى اختيَارِه.

سَرَحـت بعيدًا، وَحَلُمت بمُسـتقبل وَليدهَـا، كانَ يبدُو بهيجًا ومدْهشًـا، سـيعيشُ فِي بحْبوحَة، فوَالدُه رئيـسُ «مفيزو»، ولهُ راتبٌ حُكومى وَيمتلكُ أرضًا وقطعَانًا منَ المَاشيةِ، تمْتمتْ:

«لا يوجدُ مَا هوَ أفضَلُ منْ ذلكَ».

وَالتفَتتْ إلى زوجهَا وَقالتْ:

«ولكنَ يَا زوْجى الغَالى، لماذَا أسْميتَ وليدنَا رُوليهلاهلا»؟

ردَّ عليهَا بضحكَة هزَّت أركَانَ الكوخِ وَنطقَ الاسمَ فِي إعجَاب:

«روُليهلاهلا .... روُليهلاهلا، إنهُ اسمٌ يعْنى المشَـاغِب، لا أريدُ لابنـى حيَاةً رَتيبَة، أُريدُ لهُ حيـاةً حَافلة بالأحْدَاث، وَأنْ يكونَ رجلًا عظيمًا ذو كرامَة وصَاحب رَأى، يفعلُ مَا يؤمنُ بهِ ويدافعُ عنهُ مهمَا كانتِ المصَاعب».

سألتهُ زوْجتهُ:

«هلْ تُريدهُ أَنْ يكونَ رئيسًا مِثْلك»

أكَّد لهَا الزوجُ:

«بـلْ أُريدهُ أَنْ يكونَ أَعظم مِنِّى، وأَنْ يحكمَ دونَ وصَاية مِنَ الرجُل الأبيض».

عَلـت الكراهيَةُ كلَّ ملاَمحه حينَ تطرّقَ إلى ذكْر الرجُل الأَبيضِ وَلكـنَّ زوجتهُ تجَاهلت ذلكَ، كانتْ تحيَـا فِى الجنّةِ، وَتمنّت أنْ تظلَّ الأحوالُ كمَا هِىَ.

سَتظلُّ مَا الذِى يمكنُ أَنْ يَتغيّر؟

○○○

لمْ يكتسـبْ «روليهلاهلا»، اسم «نيلْسـون مانديلاَّ»، إلاَّ بعدَ التحَاقـه بالمدرسَـة، ولمْ يكنْ ذلكَ فِى «مفيـزو»، ولكنْ فِى قريَة «قونـو». أمَّا لمَاذَا انتقلَ «نيلْسُـون مَانديـلاَّ» منْ «مفيزو» إلى «قونو»، فلأنَّ أَبَاهُ كانَ مُعتزًّا بكَوْنهِ إفْريقى لهُ كرامَة، وَلاَ يحقُّ للرجُـل الأَبيْضِ إهَانتهُ فَذاتَ يوم قدَّم أحدُ رعَاياه شـكْوَى إلى القَاضِى الأَبْيَضِ، الذِى طلبَ منهُ مُثولاً فَوْريًّا أمامهُ.

ثارَ وَالدُ «مانديلاَّ» لكرامتهِ وَقالَ لرسُول القَاضِى الأَبيض:

«سأَمْثلُ أمامهُ حينَ أكونُ مستعدًّا لذلكَ»

ثَار القَاضى، وهاجَ ومَاجَ وصرخَ:

«كيـفَ يجرؤ، كيفَ يجرؤ رجلٌ أسـودُ عَـلى مُخَاطبَتِى بهذهِ الصُّورة؟»

راجعَ رسولَهُ غيرُ مُصَدق:

«هلْ كانَ هذَا ردُّه حقًّا»

أجَابهُ الرسولُ: «نَعَم»

خبطَ القاضِى بِكَفِّه عَلى المنضَدة القريبةِ وقَال:

«كيفَ يجرؤُ، لابدَّ أَنْ يدفعَ الثمنَ»

جُـرِّد والدُ «نيلسـون مَانديلًا» منْ أملاكه وَ سُـلطته، وَانتقلَ «نيلْسون مانديلًا» إلى «قُونو» معَ أمهِ، حيثُ يعيشُ العديدُ منْ أقاربهَا هناكَ.

وكانَ أبـوه يزورُهـم هناكَ وَيهمـسُ فِى أُذن ابنهِ مُشـيراً إلى السمَاء وَالأَرْض:

«هـذَا هوَ وطنكَ، ووطَن أجدادكَ قبلَ قـدومِ الرجُل الأَبيضِ بمئَاتِ السنينَ».

وحينَ بلغَ «نيلْسون» التاسـعَةَ منْ عُمره، رحلَ أبوهُ عنْ هذَا العالمِ، لتتغيَّرَ حياتهُ منْ جديدٍ.

بعدَ وفَاة الأَب، عرضَ ملكُ قبيلَة «الثمبو» أَنْ يتولَّى رعاية «نيلْسون مَانديــلَّا». وَافقــتْ أمهُ مُحْتملة ألمَ فراقه، لأنَّ هذه الرعَاية ســوفَ تكفلُ لابنهَا مُســتقبلًا أفضَل، وقدْ يُعيد هذَا للأسرَة مَاكانَ للأبِ منْ سُلطان.

انتقل «نيلسُــون مانديــلاً» إلى «مفهيكيزويني» عاصِمَة «الثمبو» وعاشَ هناكَ فِي قصْر مَلك «الثمبو»، وعُوملَ مُعَاملة أبنائه. وَالتحقَ بالمدرسَة القريبَة منَ القصْر. كانَ «نيلسون مَانديلاّ» يقْضى وَقتهُ بينَ الاستذكَار وَاللَّعبِ فِي المرُوج القريبَة، أو تلبيةِ مَا يأمرهُ بهِ ملكُ قبيلةِ «الثمبو»، وَارتبطَ بصَدَاقة خاصَّة معَ «جاستيس» ابن الملك.

كانَ ملــكُ «الثمبــو» يحبــهُ ويَعِــدهُ أَنْ يكــونَ مستشــارًا لهُ فِي المسْتقبلِ.

مَرّت الأيامُ «بنيلْسون مانديلاً» سعِيدةَ وَهَانئة، لمْ يكنْ عَلى درَاية حتَّى ذلــكَ الوَقْت بمَا يُعَانيه السُّــودُ فِي جنُــوب إفريقيَا منْ تفرقَة بسبَب لوْن جُلُودهم.

مرَّت الســنواتُ بهِ، ثمَّ اســتدعَاهُ ملكُ قبيلــة «الثمبو» ذاتَ يومٍ وربَتَ عَلى كتفهِ بحَنان وقالَ لهُ:

«أَنْتَ تعلمُ كَمْ أُحبك، وتعرفُ الدورَ الذِى ادخرتهُ لكَ فِى المسْتقبلِ، وَلِكَى تستطيعَ القيامُ بهِ كمَا أتمنَّى لابدَّ أنْ تواصلَ التعليمَ: لأنَّ التعليمَ يخلقُ الشخصيَّةَ ويهذِّبُ الإنسانَ».

التحقَ «نيلسون مانديلا» بمعْهد «كلاركبرى» الدَّاخلى، ثُمَّ ذهبَ إلى «هيلداتاون» أكبرْ مدرسَة للإفريقيين، ثمَّ التحقَ بجَامعة «فورت هير».

كانَ المستقبلُ حتَّى تلكَ اللحْظة مُسْتقرًّا أمامَ مانديلاً، سيكونُ مستشارًا لمَلك قَبيلة «الثمبو»، وَتعلَّم منهُ أَنْ يُعاملَ الرجلَ الأبيَضَ باحترَام، ولمْ تكنْ قضايَا العنْصُرية تشغلهُ كثيراً فِى ذلكَ الوقْتِ.

تعرَّفَ فِى جَامعة «فورت هير» عَلى «بُول» ابنِ «الرئيِس العَام» للمؤْتمر الوطَنى الإفْرِيقى، كانَ «بولْ» ثوريًّا وَكثيراً مَا تكلَّم معَ «مانديلاً» عنْ حقُوق الإفريقيينَ فِى جَنُوب إفريقْيَا، وكثيراً ما قالَ لهُ:

«مِنْ حَقهم أنْ يحصُلوا عَلى العدَالة والديمقراطيّة»

وَذاتَ يومٍ بينمَا كانَا يتناقشَانِ فِى أُمورٍ عَدِيدة، استوقفَ أحدَ القضَاة البِيض «بول» وطلَب منهُ أنْ يشترىَ لهُ طوابعَ بريدٍ.

شوحَ «بولُ» للقاضِى الأبيَض وَقالَ لهُ:

«لـنْ أذهبَ، لماذَا يجبُ أَنْ أفعلَ، أنتَ لستَ سيدًا لِى، وَأنا لنْ أكونَ عبدًا فِى بلادِى».

بُهتَ «ماندِيلاً» بردِّ فعْل «بول» فقدْ كانَ مَا طلبهُ «القاضِى الأَبيض» أمرٌ يحدثُ كثيراً دونَ أنْ يجرؤَ الرجلُ الأسودُ عَلى الرَّفْض.

تذكَّرَ «نيلسون مانديلاً» مَا حكتهُ أمهُ منذُ سنوَاتٍ عَنْ كيفيَّةِ فَقْد أَبيه الثروَة وَالسُّلطة لقدْ رفضَ أبوهُ الإذعَانَ للرجُلِ الأبيضِ.

لمْ ينمْ «نيلْسون مانديلاً» ليلتهَا، أخذَ يحللُ مَا فعلهُ «بول» وشعرَ فِى تلكَ الليلةِ أنَّ هناكَ شيئًا يتغيَّرُ دَاخِله، وَلكنهُ لمْ يَسْتطع تحْديدَهُ.

واصلَ «نيلسون مانديلاً» دراسته فِى جَامعة «فورت هير»، وكانَ يشعرُ كُلَّ يوم أنَّ للعلمِ سَطْوةً وقدرَةً عَلى إنارَة العقْل، وأنَّ أُفقَهُ يتَّسع كلَّما ازْدَادت مَعْرفتهُ.

ثمَّ حدثَ شيءٌ غيَّر مسَار حيَاة نيْلسون مانديلاً، ففِى إحْدَى الإجَازَات منَ الجَامعة استدعَاهُ ملكُ قبيلة «الثمبو» واستدعَى معهُ ابنه «جاستيس».

وَدونَ مقدمَـات، وفيـمَا يشـبهُ الأَمرُ المَلـكى، أخبرهُمَا أنـهُ قرَّرَ تَزْوجيهمَا بفتاتيْن اختارهُمَا بالفعْل. قالَ ملكُ قبيلة «الثمبو» كلمَتهُ وَمَضَى، دونَ أنْ يترك لأيهمَا فرصَة للاعتراَض أوِ المنَاقَشَة.

قالَ لهُ «جاستيس» فِي نفاذِ صبرْ:

«مَا فائدةُ أنْ نتعلَّمَ إِذَنْ، مَادمنَا سَنخضَعُ للتقَاليدِ البَالية؟!»

وَافقهُ «نيْلسـون مانديلاً» وهزَّ رأسهُ فِي أَسًى، فواصَلَ «جَاستيس» اعتراضَهُ:

«تصوَّر أتزوجُ أمرأةً يتمُّ اختيارهَا لِي دونَ إرادةٍ مِنىً أوْ مِنْهَا»

سألهُ مانديلاً:

«وَلكنْ مَا الحلُّ فِي رَأْيكَ؟

طمْأنهُ «جاستيس»:

«لابدَّ أَنَّ هناكَ حلٌّ، لاَ تخَفْ»

التقيَا فِي المسَاء وَأسرَّ لهُ فكرتَهُ فِي كلمةٍ واحدَةٍ:

«جُوهَانسْبيرج»

تواردَتْ عَلى خَاطرِ «مانديلاً» كَثيرٌ منَ الحكَايَات وَالأَسَـاطِير التِى سمعهَا عنْ «جُوهَانسبيرج».

استوضَحَ «مَانديلاً» منهُ فبادرهُ قائلاً:

«سنهربُ إلىَ هناكَ»

ارتبكَ «مانديلاً» وقالَ فِي دهشَة:

«ماذَا؟ وَهلْ هذَا ممْكنٌ»

بَادرهُ «جاستيس» قائلاً:

«إذَا أردتَّ أَنْ تُغيرَ قدَرَكَ لاَ تَسْتسلمْ لهُ و لابدَّ منَ المغَامرَة»

شعرَ «مانديلاً» بكثير منَ التردُّدِ ولكنهُ كانَ مُتعطِّشًا إلى تجربَة جديدَة، وَأنْ يثورَ عَلى التقاليدِ الاجتمَاعيّة الباليَة. قالَ كأنمَا يَتبعُ حدْسًا أقوَى منهُ «مُوَافق».

علمَ ملكُ «الثمبو» بهرُوبهمَا، ووضعَ أمامهمَا العرَاقيلَ، وكادَا يفشلاَن، ولكنَّ «جاستيس» لجَأ إلى أحدِ أصْدقائهِ المحَامينَ. فرتَّبَ لهمَا السَّفر إلىَ «جُوهَانسبيرج» دَاخلَ سيَّارةٍ معَ أمهِ مُقابل ثلاثونَ جنيهًا.

وتذكَّر «مانديلاً» اسمهُ الإفريقى وهوَ فِي طريقهِ إلى المدينةِ المُثيرة، أنَّ اُسمهُ يعْنِى أَنْ لاَ يَسْتسلمَ لقدرهِ، وَلنْ يَفْعل.

○○○

وصلَ «نيلْسون مانديلاً» إلَى «جُوهَانسبيرج»، وتجوَّل هوَ وَ«جاستيس» فِي طُرقاتهَا، وَتعرَّف عَلى أحْوالِ السُّود هناكَ منْ أوَّلِ وهْلة، كانُوا يسكنونَ فِي مسَاكن ضَيِّقة، تنتشرُ فِي عَشوَائية مِثْل خلايَا سَرَطَانيّة هنَا وَهناكَ، فِي مناطِق خاصَّة، وكانَ السودُ يُوَاجهونَ كلَّ يوم خطَر خرْق القَوَانين، فَمجرَّد المرُور منْ بابٍ مُخَصَّص للبيضِ، أوْ ركوبِ حَافلة مُخَصَّصة لهمْ يعدُّ جريمَة.

شعرَ «نيلْسون مانديلاً» بالظُّلم الذِى يُوَاجههُ المواطنُ الأسودُ عَلى أَرْضه.

كانَ لاَ يملكُ مالًا، وَلكنّ «جاستيس» استطاعَ تَدْبير عمل لهُ فِي منَاجم التاجِ الأبيَض، فقدْ كانَ رئيسُ العمالِ يعرفُ «جاستيس» ويعرفُ أنهُ ابنُ ملكِ قَبيلة «الثمبو»، وتصوّر أنهمَا يتصرَّفانِ بنَاءً عَلى رَغبتهِ.

وَبذلكَ اسْتطاعَ «نيلْسون مانديلاً» الحصُول عَلى وَظيفةِ حَارسٍ لَيْلِيٍّ.

ولكنَّ «نيلْسون مَانديلاً» أَفْضى ذاتَ يوم إلى أحدِ العاملينَ بالمنْجم بسرٍّهمَا، فهوَ و«جاستيس» هاربان مِنْ ملكِ «الثمبو» لأنهُ يريدُ تَزْوجيهمَا رغمَ إرادتهمَا.

فقدَ «نيلسون مانديلاً» وظيفتَهُ، ولكنهُ لمْ يَعُدْ إلى مَلك «الثمبو» وبقَى فِي «جُو هَانسبيرج»، وقرَّرَ أنْ يكونَ مُحَاميًا.

كانَ يريدُ بصدْق الدفَاع عنِ المواطنينَ السُّود، المحَاصرينَ بالقهْرِ وَالعنصُريَّة.

عاشَ فِي منطقة «الكساندر» وسجَّل لنيْل درجَة فِي القَانونِ فِي جَامعَة «جُوهانسبيرج»، وكانتْ تمنحُ درجَات علْميّة بالمرَاسَلة.

التحقَ بعدَ ذلكَ بجامعَة «ويستواتر براند» للحصُول عَلى اللِّيسانس فِي القَانُون.

زامَل فِي الجَامعَةِ أَفارقةً وَهنُود وبيضَ وواجهَ مواقفَ عَديدةً اتَّضحت فيهَا كيفَ كانتِ العنْصُرية مُتغلْغلة فِي نفُوس كثيرٍ منَ الأقليَّة البيضِ فِي جنُوب إفريقيَا، وَلكنهَا الأقليةُ الحاكمَة صَاحبةُ الكَلمَة.

ففِي إحْدى المرَّات جلسَ إلى جوَار زميل أبْيَضَ فِي المدرَّجِ، فنظرَ إليهِ بتأفُّفٍ، وجمعَ أشياءَهُ وابتعدَ عنهُ كأنهُ طاعُون.

وَذاتَ مرَّة استقلَّ حافلةً، مُخصّصة للبيضِ، فجلْجَلَ صوتُ الكمسَارى فِي أُذنيْه:

«أيُّها «الكَافِير» عليكَ بالمغَادرة».

أوقفَ الكمسَـارى الحافلةَ وَ اسْتدعى الشرطةَ التى اصْطحبتهُ إلَى القسْـم، وكادَ «نيلْسـون مانديلاً» يُقدَّمُ للمحَاكَمَة، لولاَ تدخُّل أحَد معَارفه مِنْ ذَوى الصَّلات القويَّة فِى الأمْر.

كانـتْ هناكَ فِى تلكَ الأثنـاء دعَوات كَثـيرة «للأباراتيد»، وهىَ كلمةٌ معناهَا الفصْلَ، بينَ السُّـودِ والبيضِ، وترْسـيخ فِكْرة سيَادةِ الجنسِ الأَبيْضِ.

وصدَرت القوانينُ المناصرةُ «للأباراتيد»، التى تُصنِّفُ السكَّانَ وِفقَ لَوْن البشرَة، وَتَجْعيد الشـعْر، وسمْك الشَّفتيْن، وَالتى تُعطى البيضَ الحقَّ فِى الحصُول عَلى مَناطقَ سَكنيّة يقطنهَا السُّود.

فقـطْ عَليهم إعْلان هَذه المنْطقة أَوْ تلـكَ منطِقةً للبيضِ، كَىْ يتمَّ تهْجير السُّكان السُّود إلى مَنَاطق أُخرى.

وَظَهرت قوانينٌ تُرسِّـخ فصْلَ السُّـود عَن البيضِ، فِى التعليم، وتبررُ ذلكَ بأنَّ المواطنَ الأَسـودَ خُلِقَ كَىْ يقـومَ بالأعمَال الوضِيعَة، وَلذلكَ فليـسَ هناكَ داعٍ لأنْ يتلقَّى التعليمَ الذِى يحظَى بهِ البيضُ، المقدرُ لَهُم أنْ يسودُوا جنوبَ إفريقيَا.

كانَ «نيلْسـون مَانديلاً» معارضًا لكلِّ هذَا، وَلاَ يرَى أَىَّ حقٍّ للبيضِ فِى السـيادةِ عَلى السُّـود، فقدْ خلقنَا اللّه سَوَاسية، وليسَ منَ العدْلِ التفْرِيق بينَ إنسَان وَآخرَ بسببِ اللَّون أَو الجنْس أوِ الدينِ أوِ اللُّغةِ.

قررَ «نيلسونِ مانديلاَ» أنْ يكافحَ منْ أجْلِ تحقيقِ العدَالةِ، وَإقرارِ المبَادئ التى طالمَا آمنَ بهَا.

وحينَ أنهَى دراستهُ القانونيَّةَ، وتدرَّب فِى العديدِ منْ مَكاتب المحَامَاة الهَامَّة. شـاركَ صَديقهُ «تامبو»، وافتتحَا سويًّا مكتبَ مُحَامَاة. وكانَ أولُ مَكتبِ مُحَاماة إفريقىٍّ فِى جُوهَانسبيرج.

كانَا كثيرًا مَا يتحدَّثَا سـويًّا عنْ أهميةِ مَا يفعلَان للمواطنينَ السَّود، قالَ لهُ «تامبو» ذاتَ مساء:

«إنهُم مُحَاصرونَ بالعديدِ منَ المخَاطر، فاسْتخدَام صُنبور مُخَصص للبيـضِ، أو الركُـوبِ فِى حَافلةٍ أوِ المرُور منْ بـابٍ مُخَصصٍ لهُم، قدْ يُعَرِّضُ المواطنَ الإفريقىَّ للمسَاءلةِ والمثُولِ أمامَ المحْكَمةِ».

يضحكُ مانديلاً:

«نحنُ، أيضًا يا تامبو، نُعانى مِثْلهم، بالأَمْس كنتُ أستجوبُ شاهدًا أبيضَ، فرفضَ الإجابةَ عَلى أسـئلتى، أتدرِى مَاذَا كانَ تَبْريرهُ، قالَ إنهُ لَنْ يردَّ عَلى مُحَام أَسْود».

زَفَر «تامبو» فِي ضيقٍ وَلَمْ يُعلِّق.

فقالَ لهُ مانديلا:

«إنَّ مَا يحدثُ هنَا فِي جنُوب إفريقيَا، أَمرٌ لاَ تُقرُّهُ حقوقُ الإنسان، ثُـمَّ إنَّ جنـوبَ إفريقيَا هِيَ وطنُ الأفارقَة السُّـود، فهـلْ يعقلُ أَنْ نُعامَـل مُعاملةَ العَبيدِ فِي وَطننَا، سـنواصلُ الكفاحَ «ياتامبو»، حتَّى تَصيرَ للإفريقيِّ كلمَة فِي بلاَده وَيتحرَّر».

كانَ مكتبُ المحَاماة الخَاص «بنيلْسون مَانديلاً» وَصَديقه «تامبو» يزدحمُ كلَّ يوم بالمواَطنينَ السُّود، وكانَ «نيلْسون مَانْديلاً» ينظرُ كلَّ يوم فِي عُيونِ زَبَائنه الأفارقَة الجائعة للعَدَالة، وَيقرأُ فيهَا شُـعورَهم بالفخْر لوجُود مَكْتب مُحَاماة إفْريقى يدافعُ عنْ قضَايَاهم.

وكثيراً ما كانَ يُخاطبُ نفسَهُ:

«لَنْ أَخْذلَ هَؤُلاء.. لَنْ أَخْذلهم»

كانَ ماضيًا فِي كفاحه السِّياسى وَلكنَّ زوجتهُ «ايفلين» لَمْ تكنْ راضيَةً عنْ ذلكَ. وكثيراً مَا حَاولت إثناءهُ، وكانتْ تقُولُ لهُ:

«السِّيَاسة مَضْيَعة للوقتِ»

وكانَ يردُّ عليهَا بحسْمٍ ويقولُ:

«أنَا أفعلُ ذلكَ منْ أجلكِ وَمنْ أَجْلِي، ومنْ أجْل أبنائنَا، أُريد أنْ يعيشَ أَبْنَائِي فِي وطنٍ، لاَ أَنْ يصيرُوا مجرَّد عبيدٍ فِي مستعمرَةِ الرجُل الأبْيَض».

وكانتْ تُجَادله:

«إنـكَ مُحَام نَاجح، والطريقةُ الوحيدةُ لخـلاَص أبنائنَا منَ المهَانة هوَ الاتجَاهُ إلىَ الرَّبِّ».

فيقولُ مانديلاً:

«خدمةُ الوطَن سَتُرضى الربَّ دونَ شكٍّ»

كانَا يقضيَان السَّـاعات فِي جدَالٍ ومنَاقشـاتٍ، وَأدركَ «نيلسـون مانديلاً» أَنَّ زواجهُ مِنْ «ايفيلين» لنْ يَسْتمر.

○○○

ذاتَ يوم قـررَتِ الحكومةُ إخلاءَ منْطقة «صوفيا تاون» المخصَّصةَ للسُّـود. شَـعرَ مانديلا بالظلْم يحكمُ قبضَتهُ عَلى المَواطنينَ الأفارِقة، كيفَ يتركُونَ مَسَـاكنهم، إلَى المجْهولِ؟ فـكانَ قَدْ تقرَّر إجْلاَؤُهم إلى منطِقةٍ لمْ تُقَمْ فيهَا مَسَاكنُ بَعْد.

ثارَ «نيلسون مانديلا» وَ زُملاؤُهُ المنَاضلينَ الشُّرَفاء. وَأقامُوا العديدَ مـنَ الاجتماعَـات فِي «صوفيا تاون» لحـثِّ المواطِنينَ السُّـود عَلى مقاومَة قرَار النقلِ.

كانَ «نيلسون مانديلا» قدْ بدأَ يُفكر أَنَّ المقاومَة السلميَّةَ لَنْ تُعيد للأفارِقَة حُقُوقهم، فلابدَّ منْ تشكيل جيشٍ منْ أهْلِ البلدِ الأفارقةِ وَمَنْ يُؤَيِّدُهُم مِنَ البيضِ أوِ الهنود الذينَ يعيشُون فِى جنُوب إفريقيَا.

وَفِى أحـد الاجتمَاعَـاتِ التِـى أقيمَت فِى ميـدَان فِى قلْب «صُوفيا تاون»، حَثَّ «مانديلا» الأفارقَةَ عَلى التمسُّكِ بمَنَازِلهم وَمقَاومَة قرَار النقلِ، وفَجْأة وجدَ نفَسهُ يقول:

«هناكَ أعْدَاء فلنحْمل السلاحَ وَنُقَاومهم».

صرخَ مُستمعوهُ الشبابُ فِى حمَاسةٍ وَهتفُوا:

«نَعَم..نَعَم».

بعدَ هذَا الاجتمَاع عَنَّفهُ زملاؤُهُ وقالُوا لَهُ:

«لَقَد تَسرَّعْت، أنتَ تعرفُ أَنَّ المقاومَةَ السِّلميَّةَ هِىَ الوَسِيلةُ التِى نُفَضلهَا».

رَدَّ عَليهم مانديلاَّ:

«ولكنَّ هذَا لا يكفِى وَلنْ يردَّ للأَفارقَة حُقُوقهم».

أطرقَ زملاؤُهُ، كانُوا مُقتنعينَ بمَا يقولُ، وَلكنَّهُم يدركُونَ أَنَّ الوقتَ لاَ يزالُ غيرُ مُنَاسِب للجُوءِ إلىَ القُوَّة.

تركَهم «مانديلا» فِي ذلكَ اليوم وهوَ يقولُ لنفْسِه:

«الحَقُّ وَالعدلُ، كيفَ يحْظى المواطنُ الإفريقيُّ بالحقِّ والعدْل؟».

التقَى بامرأةٍ عجُوز نظـرَت إليهِ فِي صمْت، وَطفلٍ صَغير لوَّحَ لهُ، وأشـارَ إلى السـمَاء، كأنهُ يدعوهُ إلى تأمُّل صَفائهَا وَيَسْـتلهمُ منهَا حلاً لقَضيّته، شـعرَ «مَانديلا» بالثقةِ تَسْرِي فِي كلِّ كَيَانه، وَخاطبَ نفسَهُ:

«ستعودُ جنوبُ إفريقيَا يومًا للإفْريقيينَ».

ظلَّ يرددُ تلكَ الكلمَات حتَّى بعدَ أنْ أحاطَ آلافٌ منْ رجَال الشرطة وَالجيشِ «بصوفيا تاون» ذاتَ يومٍ، وقامَ العمالُ بهدْمِ بُيُوت السُود، ونقلَتْهم الشاحناتُ بعيدًا عنهَا.

○○○

ظلَّ «نيلسـون مانديلا» هُوَ ورفاقهُ يُحاربونَ العنْصُرية فِي جنُوبِ إفريقيَا، رغْمَ تعقُّب العنْصُريين لهُم.

وَفِي أحدِ الأيامِ منْ عام ١٩٥٧ وجدَ «نيلْسون مانديلاً» نفسَهُ مُتَّهمًا بالخيانَـةِ العظْمَى، وَالتآمرِ مـعَ دولٍ خَارجيَّةٍ ضـدَّ حكوُمةِ البيضِ فِي جنُـوب إفريقيَـا وَاتُّهم معهُ مائـةٌ وَخمسُـونَ إفريقيًّا وَعشْرونَ

هنديًّا وعشرُونَ مِنَ البيضِ وَسَبْعَة مُلَوَّنينَ نُقلوُا جميعًا إلى سجن جُوهَانسبيرج، ومنهُ إلى قاعَة التدريبِ العسْكرى للمحَاكمة. أفرجَ عنْ «نيلسون مانديلا» بكفالةٍ تقَدَّرُ بخمسٍ وعشرين جنيهًا، ولكن استمرَّت مُحَاكمتهُ بهذه التهمَة سَنَوَات.

وبينمَا كانَ جالسًا فِي مكتبهِ ذاتَ يومٍ، شعرَ بالإجهَاد وقرّرَ الخُرُوجَ منَ المكتبِ دَقَائق للرَّاحَة، فتحَ البابَ فِي قوةٍ، ونظرَ أمامهُ، ليطالعهُ وجْهٌ مَلَائكى لفتاةٍ حُلوْةٍ.

ابتسمَ رغمًا عَنْهُ وغمرَه شعورٌ مُبْهم بالسَّعَادة، بَادلتهُ الفتاةُ الحُلْوة الابتسَامَات. كانتْ هناكَ منْ أجْل الحصُول عَلى اسْتشارةٍ قَانُونية.

شعرَ «نيلسون مانديلاً» بالحبِّ يطرقُ قلبَهُ، هلْ هذَا مُمْكن؟ وهوَ مَا يزَالُ يُحَاكم؟ أثبتتْ لهُ الأيامُ التَّالية، أنَّ حَدْسَهُ كانَ صَحيحًا، وَأَنَّ لقاءَهُ «بوينى» لمْ يكنْ أبدًا لقاءً عابرًا، كانَ هَذَا وَعدًا جديدًا بالسَّعادة، وَبابًا لحيَاةٍ جديدةٍ مَليئة بالأَمل. كانَ زَوَاجُهُ «بايفيلين» ينهَار، وكانَا قدْ ناقشَا بالفعْل فكرةَ الطَّلاَق.

وَبمجرَّد حُصُوله عَلى الطَّلاق تزوَّج منْ «وينى».

استمرَّت مُحَاكمة «نيلْسون مَانديلاً» حَتَّى عام ١٩٦١، وَأخيراً حصلَ عَلى البراءةِ منْ تُهمة الخيانَةِ العظْمَى.

ooo

«لم يعد هناك بد من تكوين جيش لمحاربة العنصرية»

هذَا مَا قالهُ «نيلْسون مَانديلاَ» لزُمَلائه ذاتَ يوم.

وَافقوهُ وبدأُوا فِى تكوِين هـذَا الجيْش وضَمُّوا إليْه كلَّ المنَاهِضِينَ للعنْصُرية داخلَ جنُوب إفريقيَا منَ الإفريقيينَ وَلمْ يُمَانعوا من التحَاقِ البيضِ المؤمنينَ بالقضِيَّة بِالجَيْش.

وَفِى هذهِ الأثنَاء حصَل «لوثولى» وهوَ أحدُ المناضِلينَ ضِدَّ العنْصُرية فِى جنُوب إفريقيَا عَلى جَائزةِ نُوبل للسَّلام.

شعرَ «نيلسون مانديلاً» بِالابتهَاجِ، لقدْ كانَ يعْنى أنَّ العالمَ يسمعُ ويرَى مُعَاناة السُّود فِى جنُوب إفريقيَا، وَأنَّ هناكَ العَدِيد منَ الشُّرَفاء الذينَ يروْنَ أنَّ للسُّودِ الحَقُّ فِى التمتّعِ بكلِّ مَا ينالهُ البيضُ منْ حُقُوق.

كانَ «نيلسون مَانديلا» يحلُم بالحريَّة، ويتابعُ أخبارهَا فِى كلِّ مكَانٍ، وَبلغهُ التطوُّرَات التِى حَدثت فِى مصْر وَتمنَّى زيَارتهَا.

واتتهُ الفرصَة حينَ سافرَ إلَى «أديس أبابا» لحضُور المؤتمَرِ الإفريقى، لمْ يكنْ سفرهُ سَهْلاً. كانَ يعيشُ مُتخفيًا منَ الشُّرْطة التى طَارَدتهُ فِى كلِّ مكانٍ. وَلكنَّ إيمَانَهُ بعدَالة قَضيَّته كانَ يمنحُه القوةَ. وكَانَ هناكَ كثيرونُ مُؤمنينَ مِثله بالقضيَّة وَمُستعدونَ لمسَاعدته وهذَا جعَل تهْريبهُ منْ جنُوب إفريقْيَا لحضُورِ المؤتمرِ مُمْكنًا رغْمَ صُعوبتهِ وَالمخَاطر الكثيرة التى أحَاطتْ بهِ.

بعدَ حُضوره المُؤْتمر فِى «أديس أبابا» سافرَ إلى مصْر وبهرَتهُ حضَارتهَا العظيمَة. أثَّرَت فيه تجربَةُ جَمال عبد النَّاصر، لقدْ أتاحَ التعليمَ للجَميع وَشرَعَ فِى بناءِ صُرُوحٍ اقتصَاديَّةٍ وَطنيَّةٍ. كانَ يُبهرهُ أيضًا أنَّ مصرَ تملكُ جيشًا قويًا، كانتْ زِياتُهُ لمصْرَ وقودًا لكفَاحه. كانَ يحلُم أنْ تحظَى جنُوب إفريقيَا يومًا بمَا حَظِيتْ بهِ مِصْر.

○○○

وَاصَل «نيلْسون مانديلاً» كفاحَهُ ضدّ العنصْريّةِ فِى بلاَده، وهذَا جعَلهُ مُطاردًا باستمرْارٍ منْ قبَل الشرطَة.

وذاتَ يوم أُلقىَ القبضُ عليْه، بينمَا كانَ مُتخفيًا تحتَ مظَلَّة اسْمٍ آخَر، وتمَّ إرسالهُ إلَى السِّجْن فِى «جُوهَانسبيرج»، ومنهَا انتقلَ

إلى سجْن آخرَ فى «بريتوريا»، وَأخيراً أخذوهُ ومَنْ معهُ إلى جَزيرة «رُوبين»، وهىَ جَزيرة لهَا وقْع مُخيف لدَى الإفريقيينَ فِى جنُوب إفريقيَا، وقدْ كانتْ فِى السَّابق موْطنًا للمصَابينَ بالبرَص وَالجنُون، قبلَ أنْ تتحوَّلَ إلى سِجْن، وهذَا جعلهَا مَادة خصْبة للحِكَايَات وَالأسَاطِير، فالذى يذهبُ إلى هناكَ لا أملَ فِى عَوْدته.

مكثَ «نيلسون مانديلَّا» فِى تلكَ الجزيرة، هوَ وزملاؤُه بعضَ الوقت، حتَّى حانَ موْعد مُحَاكمته فِى «بريتوريا» حينذاكَ نقلوهُ إلىَ هناكَ.

كانتِ الجماهيرُ تُحيطُ بمَكان المحَاكمة وتهتفُ باسْمه، وَاشتدَّ حمَاسُهم خاصَّة وهُم يروْنَ زَعيمَهم يرتَدى زيًّا إفريقيًا فِى أوَّل أيام المحَاكمة. ليؤكدَ للجَميع أنهُ إفْريقىٌّ أَسْود، وَأنهُ فخورٌ بكونه كذلكَ.

انفجرَ الغضبُ الشعبىُّ لمحَاكمة «نيلسون مانديلا»، التى سُميت بمحَاكمة «ريفونا».

وَارتفعَت اللافتاتُ فِى كلِّ مكانٍ، تَدْعُو إلى إطْلاق سَرَاحه، وَاكتسَبتْ القضيةُ تَأْييدًا عالميًّا، فدعَا مجلسُ الأمنِ فِى الأمم المتَّحدة إلى إطْلاق سرَاحِ «نيلسون مانديلاً» هوَ وزملاؤُه، ممَّا رفعَ منْ معنويَّاتِ

«نيلسون مانديلا»، وَأشعرهُ أنَّ للعَالمِ ضَمِير إنسانى يَقِظ، وَلاَ يُرْضِيه مَا يحدثُ فِى جنوبِ إفريقيَا.

وَلمَ لاَ و«نيلسون مانديلا» كانَ يدُعو إلى كلِّ ما يُؤكدُ كرامَةَ الإنسَان، وَأَنْ يتسَاوى السودُ بالبيضِ داخلَ وطَنِهم فِى كلِّ منَاحِى الحيَاة وأَنْ يصيرَ لأطْفَالهم مُستقبلاً، وَأنْ يَحْظُوا بتعْليم جَيِّد.

كانتْ زوجتُه «وينى» إلى جوارِه، أثناءَ كلِّ فصُول المحَاكمةِ تُؤَازرهُ وَتقولُ لهُ:

«أنَا معكَ، وإفريقيَا والعَالم معكَ».

ولكنَّ القاضِى الذِى كانَ يُحَاكمه لمْ يستمِعْ إلىَ ضَمِيره، وَأدانهُ ظلمًا هُوَ وَزملاَءَهُ الشرَفَاء.

تـمَّ نقْـلُ «نيلسـون مانديـلاً» ورفَاقهُ مـرةً أُخْـرى إلى جزيرَةِ «رُوبِين».

○○○

كانَ الجوُّ قارسَ البرودةِ فِى جزيرَة رُوبين، وكُلِّفوا هناكَ بعَملٍ شَاقٍّ، وَلكنَّ «نيلسـون مانديلاً» قرّرَ عَدَم الاستسْـلَام، لَمْ تنطَفئ الشمسُ دَاخِل عَقْله، كانَ يؤمنُ أنَّ الغدَ سَيَأتى دائمًا بالأَفْضل.

لَمْ يكــنْ يريدُ أنْ يخــذُلَ مُواطنيه الذينَ يتابعوهُ ويســتمدُّوا منْ رحْلةِ كفاحه القوَّةَ. لقدْ صَار قدوةً للشَّباب وَحديثَ العجَائز وحلْم الأطفَالَ. لنْ يَستَسْلمَ، فلاَ طرِيق أمامهُ سِوى طَريق الصُّمود.

مرَّتِ الايامُ، والشهورُ، وَذاتَ يوم جَاءهُ نبأٌ حزِينٌ، فقدْ تُوُفى «ابنُهُ» مِنْ زَوجتهِ الأُولىَ «ايفلين» فِى حَادِث سيَّارة.

اخترقَ الألمُ قلــبَ «مانديلا»، وحاولَ تصــُّور اللَّحظَات الأَخِيرة فِى حَيَاة ابنهِ، وَفعلَ المُســتحِيل كىْ تسمحَ لهُ السلطاتُ بحضُور الجَنازة، دُونَ جَدْوى، فلمْ يَنَــلْ هذِه الموَافقة أبدًا وَلمْ يتمكَّنْ مِنَ اصْطحابِ ابنهِ الحَبِيب إلِىَ مَثواهُ الأخِير.

كانَ الألمُ شديدًا، ولكنَّ «نيلسون مانديلا» احتملهُ وحاول تجَاوزهُ فهوُ ليــسَ أبٌ لابنهِ فقطْ، ولكنــهُ الآنَ صَار أَبًا لــكلِّ الإفريقيينَ فِى جنُوب إفريقيَا.

توالتِ السنواتُ داخلَ جزيرَة «روبين». استثمرَ «نيلسون مانديلا» وقتهُ هناكَ فِى الدراسَــة ونيل الشــهَادات الجَامعيَّة، ومُمَارسةِ عَمَله كمُحَامٍ للمسْــجُونينَ، فكانَ يمنحُهم مشُــورته القانونيَّــة ويعدُّ لَهُم عَرائضَ الاستئنافِ.

وَبعَـد أنْ قضَى ثمانيةَ عـشرَ عامًا فِى جَزيرَة «روبـين»، صدرَ قرارٌ لنقلهِ منْ هناكَ إلى سجْن «بولسمور».

تعجَّب «نيلسون مانديلا» منْ هذَا القَرَار، وَشعرَ المسجُونُونَ فِى جزيرةِ «روبين» بالحزْنِ، لمغَادرَتهِ إيَّاهُم دونَ أَنْ يُتاحَ لهُ فرصَة وَدَاعهم.

انتقلَ «نيلسون مانديلا» إلى سْجنهِ الجديد.

كانَ لكفاحهِ هوَ وَزملاؤهُ كلُّ هذِ السَّنوات منْ أجْل القَضَاء عَلى العنصريَّة، أثرهُ عَلى المجتمعَ الدَّوْلى، وَفُرضَت عُقُوبات اقتصَاديَّة عَلى جنُوب إفريقيَا حتَّـى تَقْضِىَ الحكومَةُ هناكَ عَلى العنْصُريَّة. ونتيجَةً لذلكَ بدأ وضْع «مانديلا» يتغَّيرُ داخلَ السـْجن، منْ سَـجينٍ سيَاسى إلى زعيم إفريقى تسعَى الحكومةُ إلى التفاوُض معهُ. وَكانتْ مَطَالبَهُ وَاضحَة أَنْ يتسـاوَى السُّودُ بالبيضِ فِى كلِّ الحقُوقِ وَ الواجبَات، وَأَنْ يتمَّ انتخَابُ حُكومةٍ ديمُوقراطيَّة لتحكُمَ جنُوبَ إفريقيَا.

ثُمَّ حدثَ أنْ تولىَّ الحكمَ فِى جنوبِ إفريقيَا رئيسٌ أبيضُ وَاسِعَ الأفقِ، هُوَ الرئيسُ دى كلارك الذى أصدرَ عفوًا عنْ «نيلسـون مانديلا»، ليَنَالَ حُرِّيته فى ١١ فبراير عام ١٩٩٠م بعدَ سبْعٍ وعشرينَ عامًا منَ السِّجْن.

○○○

لقدْ بدأَ عَهْدٌ جَديدٌ فِي جنُوب إفريقيَا، وجَلس البيضُ والسودُ عَلى مائـدةِ المفاوضَات وَانتهَت بذلكَ أُسـطُورةُ سـيَادة الرجُل الأبيضِ. وشـعرَ كلّ مُوَاطن إفرِيقى أَسْـود بكرَامتهِ وَآدميَّتـهِ لأوَّلِ مرَّة بعدَ قرونٍ منَ الـذلِّ التى قضاهَا مُذعنًا للرجُل الأَبْيَضِ، الذى رسَـا عَلى شَـوَاطئه منذُ قُرون، تحديدًا عَام ١٦٥٢ ، بقيَادةٌ «جَانْ فَان رَيبك»، واحتلَّ بلادهُ منذُ ذلكَ الوقْت، وَاسْـتنزفَ ثرواتهَا ومَواردهَا، وجعلَ أبناءَ الأرْض الأصْليينَ عبيدًا لاَ حقوقَ لَهُم.

وَأخيرًا كُلِّلَ كفاحُ «مانديلاً» وحصَل عَلى جَائزة نُوبل للسَّلام مُنَاصفةً معَ الرئيـس «دى كلاَرك» عام ١٩٩٣، وَأُقيمَـت فِي عَام ١٩٩٤ أولُ انتخابَـات حُرَّة فِي جنُوب إفريقيَا، صوّتَ فيهَا البيضُ والسـودُ، جنبًا إلِى جنْب، لينتهِىَ الحكمُ العنْصُرى هناكَ إلى الأبدِ وَيصيرَ «نيلسـون مانديلا» أولَ إفرِيقىٍّ أسْـود يُنتخبُ لمنْصبِ رَئيـسِ الجمْهُورية فِي جنُوب إفريقيَا.